الفن المعماري وإنشاء المباني السكنية بالجزائر القديمة

الدكتورة بنت النبي مقدم
جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله

مقدمة: قطن سكان الجزائر القديمة مثلهم مثل غيرهم المغارات والكهوف في ما قبل التاريخ، ومع التغيرات المناخية التي شهدتها المنطقة خلال عهد الهلوسان (Holocène) أي 10000 سنة الأخيرة من مرحلة الأزمنة الجيولوجية ثم مع بداية الإنسان في الترحال والرعي بدأ في صنع نمط المسكن الذي يتلاءم مع تنقلاته الدائمة وحياته الجديدة، و بدأ في استخدام الخيام المصنوعة من جلود الحيوانات كما يظهر من خلال رسم صخري يرجع لحقبة البقريات (بين الألفية السادسة والثالثة قبل الميلاد)، ويصور نمط حياة أسرة رعوية تعيش بخيمة مستطيلة الشكل بداخلها سرير وبعض مستلزمات العيش[1]، وشكل الخيمة غالباً ما كان دائري الشكل، ومثلما يبدو من خلال مشاهد نصب الخيام بمنطقة تازاكاروت وإحيران بالتاسيلي فإن المرأة هي التي كانت تتكفل بهذه المهمة[2] حيث تقوم بوضع هيكل الخيمة المصنوع من بعض الأغصان القابلة للطي والاستدارة وكذا من عوارض وأغصان مستقيمة وعمودية ومن ثمة تقوم بتغطيتها بواسطة جلود الحيوانات وحصائر من سعف النخيل المضفور، ولاحقاً أصبحت الخيمة تشد إلى مجموعة من الأوتاد المغروسة في الأرض كما يلاحظ من خلال رسوم التاسيلي التي ترجع لحقبة الجمل.

وظل هذا النمط من السكن مستمراً حتى خلال المرحلة التاريخية، حيث استمر الرعاة في اعتماد المنازل المتنقلة أو ما يسمى بالمبّاليا "Mapallia" والتي تبنى بمواد نباتية مثل البروق والأسل والقصب والحشفة، وتمتاز بسهولة التركيب والفّك؛ وظل المستقرون طيلة المراحل التاريخية اللاحقة وخاصة الفقراء منهم يسكنون الأكواخ المبنية بالحجارة والطين المجفف أو من أغصان الأشجار[3]، ويضاف إليها قصور الزعماء والملوك وحتى الأمراء، كقصر ماسينيسا وابنه من بعده ماسيبسا الذي تقام به الحفلات بتنشيط الأدباء والموسيقيين الاغريق، وتبسط فيه الموائد التي تعج بالأواني الفضية والذهبية[4] المعبرة عن رفاهية نوميديا، أو كقصر يوغرطة بمنطقة

تالة بالقبائل الكبرى الذي يذكره سالوستيوس[5] على أنه كان يحوي كنوز يوغرطة ويقطنه الأمراء من أبنائه.

هذا وقد اكتشف بسيرتا مجمع سكني في الجهة اليسرى من وادي الرمال[6] سنة 1960، يتضح من خلال بقاياه سور يفصل بين مجموعتين من المساكن، كل مجموعة مشكلة من خمسة مساكن وبكل منزل ثلاث غرف، وبوسط المنزل حوض صغير مغطى بغطاء حجري مقعر، ويشير محمد الصغير غانم[7] أنه قد عثر على مجمع مشابه له بمنطقة كورت دو نافارا (Cortes de Navara) الواقعة بأعالي نهر الابر (Ibre) بإسبانيا، ويضيف أن العثور على تاجين لعمودين دوريين بقسنطينة يرجعان للفترة النوميدية دليل على "التلاقح الحضاري المعماري ما بين بلاد الإغريق ونوميديا آنذاك".

وتجدر الإشارة إلى أنه خلال العهد الروماني ظلت المبَّاليا "Mapalia"[8] والأكواخ منتشرة إلى غاية العهد الفلافي والأنطونـوني حيث كان يقطن بها التجار الصغار ، والحرفيين والمزارعين واليد العاملة البسيطة بالمزارع والضيع، لأن هاته الطبقة لم تعرف حياتها أي تقدم عما كانت عليه باعتبارهم أقل درجة قانونياً من المـواطنين بالأرياف وحتى من نظرائهم بالمدينة فهم بمثابة الأجانب[9]؛ بخلاف الأغنياء الذين كان يتمتع أغلبهم بنوعين من المساكن: الدوموس "Domus" بالمدينة ذو الطراز اليوناني، المكوّن من مجموعة غرف محيطة بالفناء، والفيلا الريفية "Villa Urbana " بالريف[10]، التي صاحبها تطور الفن المعماري الإنساني في القديم.

غير أن الحديث عن الفن المعماري يتطلّب تحديد مفهوم المصطلح، خاصة وأنه قد يحدث الخلط بين مفهوم العمارة وفن العمارة ولذلك يجدر بنا توضيح اختصاص كل ٍمنهما، اختصاص هندسي معماري واختصاص فني معماري، حيث نجد أن العمارة هي طريقة البنيان لخدمة وظيفة اجتماعية محددة كالسكن والجندية وحتى العبادة وطقوس التخليد والموت، وتتطلب دراسة العمارة تحديد خصائص مختلف الوظائف وعلاقتها بالإنسان، مع التطرق لمادة البنيان ومقدرتها على تأدية الوظيفة براحة و أمان وكذا البحث في تقنيات تحضير واستخدام تلك المواد وكذا عمليات وآليات البناء، وإذا ما كانت عملية إنشاء المباني تتم ضمن أو بمعزل عن مخطط المدينة أو المجمّع السكني بجعل العمارة خلية في نسيج العمران عامة بمختلف عمائره المدنية، العسكرية والدينية؛ أما فن العمارة فهو إبداع تكويني

وزخرفي يزيد في تشخيص هُوية المبنى ووظيفته، وهو إما يكون أصيلاً أو ذو طرازٍ إغريقي هلينستي أو روماني، أو مبتكراً ناتجاً عن التفاعل بين ما هو أصيل وما هو مُتأثر به، ولقد تطور فن العمارة بعناصره المختلفة مع تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية وكان لظهور المعدن والزجاج أثر كبير في تطور العمارة ككل.

يلاحظ أن مساحة الدوموس تختلف من منطقة لأخرى بحسب ثراء مالكها وعرفت تطورا مع نهاية القرن الثاني الميلادي و بداية الثالث الميلادي، ويمكننا ذكر بعض النماذج في جدول توضيحي لمساحة بعض المنازل الكبيرة بالجزائر القديمة على سبيل المثال لا الحصر:

المنزل	مساحته	تاريخ البناء والمكان	المصدر
منزل الفراسك	2300م^2	القرن 2م بتيبازة	Février(P.A),op.cit,p58
منزل الحمار "Asinus"	870م^2	القرن 2م بجميلة (Ciucul)	Février(P.A),op.cit,p58-59 ; Blanchard-Lemée (M),op.cit,p16; 226
منزل أمفتريت "Amphitrite"	504م ^{2}		
منزل أوربا	1250م^2		
منزل كاستوريوس	1800م^2		
منزل المرمر	809م^2		
منزل باخوس "Bacchus"	7000م^2	القرن 5 م بجميلة (Ciucul)	Blanchard-Lemée (M), « La maison de Bacchus à Djemila » , BCTHS.,fasc.,17 B , 1984 , pp 131-143
منزل خليج تيزرين	2400م^2	القرن 2-3م بشرشال (Caesarea)	Ferdi(S), Mosaïques Romano Africaines ., p 21 ; 29 ; 105 ; 121
منزل تيبريدي بازلياني "Thybridi Basiliani"	145 م2^2	القرن 3-4م بشرشال (Caesarea)	

جدول توضيحي لمساحة بعض المنازل الكبيرة بالجزائر القديمة ولعلَّ القارئ المتأمِل بالجدول أعلاه يلاحظ أن أغلب الدّور المذكورة بنيت بين القرن الثاني والثالث الميلادي، وذلك راجع إلى أنه مع أواخر القرن الأول وحتى بداية الثالث الميلادي اعتبرَ عصراً ذهبياً للرخاء والازدهار الاقتصادي بكل أرجاء الامبراطورية الرومانية، مما جعل ليس الأباطرة فحسب بل وحتى المُلاَّك في مختلف المقاطعات والمعتوقين يتهافتون على بناء المنازل الكبيرة بالمدن والأرياف وتجهيزها بما تحتاجه بغية السفر والاستراحة بها.

ويذهب أغلب المؤرخين إلى أن تلك المنازل الريفية أو الفيلات كانت أشبه بالقصـر المقسّم لعدة أقسام ونواحي[11]، لكل قسم خاصيته وخدماته التي يستفيد منها السيد مالك المسكن أو الفيلا، هاته الأخيرة التي يعرفها ميخائيل إيفانوفيتش روستفتزف "M.I.Rostovtzeff"[12] بأنها مبانٍ أو عقارات ريفية ذات سمات وخصائص فنية متشابهة، أبرزتها مقتضيات النمو والتطور الاقتصادي السريع، الذي شهـدته إيطاليا منذ القرن الثاني قبل الميلاد، أنشأها أناس ذوو مكانة اجتماعية مرموقة، وعلى قدر من الثراء المادي، ترجع أصول إقامتهم إلى المدينة، وتتضمن مثل هاته العقارات شتى مقومات الراحة والرفاهية التي تعكس المكانة الاجتماعية لمالكي الفيلات ومدى ثرائهم وما يتنعمون به من حياة مُرفهَّة.

وعموما فإن المدلول العام لمصطلح فيلا "Villa" يقابله مصطلح آخر هو مَبْنى "Aedifica" وبتحديد مفهوم المصطلح نستطيع استيعاب ما تحدث عنه فارون[13] حين ذِكره لأنماط الفيلا المحددة بثلاثة أنواع:

- الفيلا أوربانا "Villa Urbana"
- الفيلا روستيكا "Villa Rustica"
- الفيلا فروكتوريا "Villa Fructuria"

ونخلص إلى أن الفيلا أوربانا يقصد بها المبنى المخصص للسكن سواء للسيد وعائلته أو لعبيده وخدمه، وبحديثه عن الفيلا روستيكا فهو يتحدث عن خصائص ومميزات المسكن الريفي والمتضمنة لمبنى حظائر الماشية والدواجن وغيرها من الطيور، وبالنسبة للنمط الثالث الفيلا فروكتوريا فيتمثل بالمبنى الذي يحوي المخازن والمستودعات، وبالتالي تصبح فيلا السيد أو مسكنه الريفي في أغلب الأحيان متكون من ثلاثة أبنية هي التي حددت بهاته الأنماط الثلاثة. وتجدر

الإشارة إلى أن المنازل الكبيرة الخاصة عرفت تطوراً مع القرن الثالث الميلادي إذ يلاحظ بالفسيفساء وجود أبراج مراقبة والتي يعتقد أنها ظهرت نتيجة انتشار اللصوصية[14]، ولدينا نموذج لمسكن ببرجي مراقبة يمكن رؤيته من خلال فسيفساء المنظر العام لمدينة هيبون قديما التي ترجع للعهد الروماني.

ولو بحثنا عن أسباب انتشار الفيلا بالأرياف الناتجة عن مؤثرات اقتصادية، سياسية، ثقافية اجتماعية وحتى حضارية لوجدنا من أهمها[15]:

- ميل كبار الملاكين للطبيعة ورغبتهم في الاستمتاع بحياتهم
- الهروب من حياة المدينة و نفقاتها الباهضة
- تضخم الملكية العقارية
- الرغبة في التملص من الأعراف والمراسيم السياسية والاجتماعية
- التأثيرات الحضارية للشرق القديم
- الانفتاح الاقتصادي الروماني
- تقليد العرف السائد وهو أنه لكل ثري دوموس بالمدينة وفيلا بالريف

ومع نهاية القرن الثاني الميلادي وزيادة الكثافة السكانية، ظهر بالمدن نوع من المساكن العائلية الصغيرة أو تلك المسماة بالإنسولاي "Insolae" ، وتتميز عن الأولى بكونها أقل مساحة من الدوموس، وانتشرت بكثـرة في المدن التي عرفت كثافة سكانية كبيرة، وأغلب سكانها من الطبقات غيـر الأرستقراطية[16]؛ يضاف إلى ذلك أنها مكونه من طوابق[17] وهي أشبه بعمارات اليوم، تتوسطها ساحة أو فناء جماعي لكل ساكني مختلف الطبقات ، مخصصة في أغلب الأحيان للكراء لأنها موجهة للأشخاص والعوائل من الطبقة الوسطى والعامة، كتلك التي كانت منتشرة بتيمڤاد[18].

وذكر سويتونيـوس[19] أن الإنسولاي ظهـرت بعد إحراق نيرون لروما، بسبب ارتفـاع الكثافة السكانية مثلما ذكرنا ببعض المدن، ورغبة المـلاك الجدد في الاستفادة من ملكياتهم الكبيرة والسكن بأحياء جديدة ومن الممكن أن تكون الرغبة في السكن الجماعي راجعة لانتشار اللصوصية في القرن الثاني والثالث الميلادي، حيث أصبح السطو على المنازل الكبيرة من أسهل ما يكون لأن العبيد لا يهتمون بثروات أسيادهم بقدر ما يهتمون بحياتهم، على عكس الجيران في مثل

هاته الحالات، فهم يهرعون لنجدة جارهم إذا ما استنجد بهم في حالة أحدق به الخطر ولأن الخطر عام[20] وليس خاص.

ومثل هذه المنازل أنجـزت ضمن مخططات عمرانية متعامدة كمخطط مدينة تيمقاد، هذه المدينة التي شهدت ارتفاع كثافة سكانية بالقرن الثاني والثالث الميلادي، وبالتالي كانت واحدة من المدن التي عرفت زيادة المباني العشوائية الغير مدرجة بمخطط المدينة المنظم من قبل سلطاتها ؛ حيث نلاحظ بمخطط المدينة مربعاً كبيراً مقسماً لمربعات صغيرة يبلغ عددها 132 مربع وهو نفسه عدد العمارات أو الإنسولات التي تمّ بناؤها، ومع زيادة الكثافة السكانية وظهور أحياء جديدة ببناء المزيد من المباني التي تكون في أغلب الأحيان من قبل الخواص يلاحظ توسعة في مخطط المدينة باتجاه الشمال والشرق. وأما المساحة فهي تختلف من مجمع لآخر، فبتيمقاد مثلاُ نجد مساحة البعض منها إلى 400 م2 ويرجع صِغَر مساحة البعض منها إلى كونها بالمدينة، حيث لا تتوفر قِطع الأراضي الكبيرة وكان يضطر بعضهم إلى شراء منازل مبنية ويعيدون إصلاحها واستغلالها كبيت الكاهن الدائم كورفيديوس "Corfidius"[21] بوسط مدينة تيمقاد الذي اشترى منزلا وأعاد بناءه. أما بالنسبة لاستخدام وبناء الدرج الإنسولاي، فنجده أحياناً داخلي وأحياناً أخرى خارجي ولا يعرف السبب وراء ذلك، إلا أننا لا نستبعد رغبة المالك في كسب المزيد من المساحة الداخلية، كما أنه قد يكون لغرض تجاري[22] إن كانت الدكاكين المخصصة للتجارة بالطبقات العلوية.

نشير إلى أنه خلال العهد الروماني انتشرت بعض النماذج والمخططات المعمارية الشائعة آنذاك والمتعارف عليها بمختلف مقاطعات الإمبراطورية الرومانية والتي كان يختار من خلالها الراغب في البناء طراز منزله، ومن تلك النماذج للمخططات المعمارية نذكر تلك التي انتشرت ببلاد المغرب القديم فقط ومنها: نموذج فيلا القاعة أو البهو وهي بسيطة البناء والشكل المربع وغرفة مركزية مربعة، ورغم التطورات الكثيرة التي عرفها هذا النمط فقد ظلت الغرفة الرئيسية التي تتوسط المسكن السِمة الملازمة لهذا النموذج.

النموذج الثاني هو نموذج الشكل المستطيل وقد بدأ في الانتشار في القرن الأول الميلادي حوالي 70م، مستطيل الشكل يتكون من مجموعة من الغرف الصغيرة الحجم عددها بحسب مساحة المسكن والمكانة الاجتماعية للمالك وذوقه الفني مع

اتباعٍ لمعالم التطور العمراني الخاص بكل مرحلة زمنية؛ ثم يأتي نموذج الرواق، انتشر بالولايات الغربية فقط مع القرن الثاني الميلادي، ومع القــرن الثالث بدأ يتطور بإضافة عدة أجنحة وأروقة ومباني الحمامات وأحيانا الدكاكين والمعابد والحدائق، ونموذج الفناء الذي ظهر مع أواخر القرن الثاني الميلادي كتخطيط.

بالنسبة لما يتعلق بأقسام ومحتويات المنازل من أجنحة وغرف يمكننا القول أنه لم يكن هناك ما يميز المنازل الصغيرة والعادية وحتى تلك المخصصة للكراء فهي في أغلب الأحيان تحتوي مطبخ وغرف نوم، أما الفيلا والمنازل الكبيرة فيبدو أن التخطيط المعماري كان يَضْبط التوزيع الهندسي والوظيفي للغرف الموجودة بها، ويظهر ذلك جليا بالعودة للكتاب السادس من الهندسة لفيتروف الذي أشار إلى أن هناك مجموعة ضوابط تحكم توزيع المرافق المعيشية داخل الفيلا، وينبغي تخصيص الجزء الخاص بأصحاب المنزل الذي لا يدخله غيرهم والجزء المخصص لهم ولمن يشترك معهم من الضيوف والزائرين دون إهمال الذوق الفني والتناسب الهندسي لتحقيق الكمال بالمنزل الخاص، ورغم اختلاف البيوت في التصاميم وشكل التخطيط إلا أنها تتشابه في معظمها فيما يتعلق بالمرافق المعيشية الموجودة وغالبا ما يجد الداخل إليها نقيشة عند الباب تشير لاسم مالك البيت أو أحدا من المشاهير[23] الذين سكنوه في الماضي.

وفي أغلب الأحيان لديها أكثر من باب بردهة وحارس "ianitor"، ولكن للضيوف والأصدقاء هناك الباب الرئيسي الذي يتم الدخول منه ليجد الداخل نفسه بردهة صغيرة مخصصة لعبد حارس وكثيرا ما يكون بالردهة أعمدة ذات طراز يوناني لتبين ثراء صاحب البيت، ولعل هذا ما دفع بجيلبار شارل بيكار "G-CH .Picard"[24] للقول أن النمط المعماري للمنازل في العهد الروماني كان متأثرا بالنمط الهلينستي، وبعد الردهة يأتي رواق كبير "Péristylum" وهو سمة بيوت الأغنياء خاصة في القرن الثاني والثالث الميلادي، معمّد ومغطى، يحيط بفناء أو باحة مركزية تكون تكون غير مغطاة بغرض تهوية وإضاءة باقي الغرف المحيطة بالرواق من الجانب الآخر وهو إما مربع أو مستطيل الشكل بحسب شكل التخطيط المعماري للبيت، وقد يتفرع لعدة ممرات وأروقة صغيرة كل منها يؤدي لجهة ما، إما حديقة أو حمام أو ورشة منزلية أو معبد أو باحة صغيرة ذات نافورات وأحواض.

وهنا تنبغي الإشارة إلى أن تواجد الحوض ومساحته بالفيلا خاضع لمدى شساعتها، وقد يحدث و يجد الباحث بالمسكن أكثر من حوض، مثلما هو الأمر بالنسبة لمنزل الحوضين بشرشال[25]، هذا المنزل لم يبق من أطلاله شيء إلا حوضين نصف دائريين، يحتمل أنهما كانا متقابلين وكل واحد منهما يطل على قاعة من قاعات الاستقبال الموجودة بالمنزل، ويلاحظ على جدار كل حوض كما يبدو منظر فسيفسائي تزييني؛ أحدهما مزين بنبتون "Néptune" جالس وإلى جانبيه الأيمن والأيسر حوريتين تحملان وشاحاً إضافة لدلفينين يمسك كل منهما بطرف وشاح إحدى الحوريتين، أما الآخر فيصور لقاء أوليس "Ulysse" بعرائس البحر وإلى جانب سفينته يسبح ثلاثة دلافين.

وبالنسبة لغرف النوم فهي موزعة بين قاعات الاستقبال والطعام في الجهة المقابلة للفناء مرورا بالرواق الكبير، إلا أن الأمر لازال مبهما لغاية يومنا هذا فيما يتعلق بمكان تواجد المطابخ وغرف نوم العبيد التي لا يستبعد أن تكون بالطابق العلوي حسب تيبار إيفون "Y.Thébért"[26] لأنه لم يبق أي أثر لهاته الطوابق بأغلب المنازل المخلّفة، وفيما يخص الطوابق التحت أرضية كنموذج، فكانت تضم غرف نوم وغرف استقبال وكذا أخرى مخصصة للطعام، وهي تخص السيد وأفراد عائلته، يلجأ إليها في حال الحر الشديد لأنها تكون باردة[27].

أما فيما يتعلق بالنوافذ فيبدو أن النمط الذي كان سائدا أثناء العهد القرطاجي[28] والمتميز بانعدام النوافذ المطلة على الخارج والاعتماد على الساحة الداخلية أو الفناء لتموين الغرف بالضوء الخارجي ظل مستمرا بأغلب مناطق بلاد المغرب القديم، ولم تُرَ النوافذ المستطيلة أو على شكل معين إلا بالأبنية ذات الطوابق بغرض التهوية وإدخال ضوء النهار للمنزل؛ وقد استمر هذا النمط من النوافذ خلال العهد الروماني؛ في حين الدرج بالنسبة للإنسولاي، فبعضه كان داخليا وبعضه خارجيا ولا يعرف السبب لاختيار الداخلي أو الخارجي، إلا أنه يمكننا التكهن بكونه قد يكون راجعا لرغبة المالك في كسب المزيد من المساحة الداخلية كما أنه قد يكون لغرض تجاري إن كانت الدكاكين بالطبقات العلوية.

بالنسبة لتزيين المنازل فيلاحظ أن أغلب الدراسات التي اهتمت بمنازل بلاد المغرب القديم ركزت على الفسيفساء المزينة لها وليس عليها كمكان يخص الأسرة أو العائلة المقيمة بها[29]، ولكن إذا ما أردنا الحديث عن طريقتهم في تزيين المنازل

فليست الفسيفساء وحدها التي كانت تزينها وتُشيد بأملاك صاحب المسكن، ولكن هناك أيضا اقتناء الأعمدة ذات الطراز اليوناني[30] سواء كانت نماذج أيونية أو دورية أو كورنثية، وقد تكون ملساء بسيطة وكذا التيجان والدعامات المنحوتة بأشكال هندسية أو زهرية والتي تزين الجزء المائل من الأفاريز.

يضاف إلى ذلك استخدامهم للطلاء والدهان المختلف الألوان، غير أن هذا لم يهتم به الدارسون كثيرا وقد يكون بسبب ندرة وجود أجزاء من الجدران والأرضيات المخلفة، ويبدو أنه استعمل الأحمر القاتم كخلفيات للأفاريز المرمرية ذات النقوش البارزة النتوء[31]، وقبل عهد هادريانوس كانوا لا يزالون يستخدمون الجير الصلب لتلبيس الجدران لكن مع عهده وباستيراد الرخام الأبيض والمختلف الألوان من بقية المقاطعات ظهرت وانتشرت تقنية تلبيس الجدران بصفائح من المرمر وكذا تزيين الأرضية به وبالفسيفساء[32] إلى جانب القرميد الذي ظل مستعملاً خاصة للأرضيات الخارجية للمنزل. دون أن ننسى المنحوتات وهنا نشير إلى أنه رغم أهميتها في دراسة المجتمع وثقافته لم تلق الكفاية من الاهتمام بها من قبل الأثريين والمؤرخين؛ وقد لوحظ أنه قبل بداية القرن الثاني الميلادي لم يبتعد النحاتين عن الموضوعات والتقليد للورشات الإيطالية والإغريقية الهلينستية.

لكن مع بداية القرن الثاني يشهد النحت بالمنطقة تطورا ملحوظا في تنوع المواضيع المنتقاة حيث تطورت من رسمية واعتماد تماثيل الأباطرة كتمثال الامبراطور هادريانوس على سبيل المثال لا الحصر، ودينية كتمثال منيرفا والإله إيروس، أبولون، ديونيسيوس، ديانا وغيرهم من الآلهة إلى شخصيات واقعية عامة، كما لم تعد المادة المستعملة مقتصرة على البرونز بل استخدم أيضا المرمر والرخام، في حين لم يتطور النحت كثيرا خلال القرن الثالث الميلادي[33] الذي تميز بكثرة المنحوتات النذرية الجنزية المتواضعة.

وتعتبر الفسيفساء من أهم عناصر الزينة لأي مسكن من مساكن الأغنياء لأن الاهتمام بها كان بالغا ليس من قبل صاحب المسكن ولكن أيضا من قبل الدارسين لها؛ ومن خلالها يمكن التعرف على أصالة وجذور صاحب المسكن ببلاد المغرب القديم[34]، حيث عُرفت بنوعيها: الأول الذي استخدم فيه الأبيض الأسود فقط كفسيفساء السباحان الموجودة بمتحف سيرتا وانتشرت مع بداية القرن الثاني الميلادي ولم تستمر سوى حوالي نصف قرن لأنها لم تلق إقبالا على عكس إيطاليا،

والثاني بالألوان وقد عرفت تطورا كبيرا وخاصة خلال عهد الأسرتين الأنطونونية والسفيرية، كما تنوعت مواضيعها سواء بالنسبة للفسيفساء الجدارية أو تلك المخصصة للأرضيات[35]، حيث ناقشت الحياة الدينية كما تناول الفسيفسائيين بعض الأساطير الإغريقية الرومانية والحياة اليومية للمُلاّك ومظاهر التسلية والترفيه في الأرياف وما غلى ذلك من مواضيع مختلفة أخرى كالصيد البري والبحري، دون أن ننسى رموز الديانة المسيحية، وخاصة خلال العهد السفيري[36] كما عرفت الفسيفساء الزهرية التي ظهرت مع القرن الثالث الميلادي انتشارا واسعا ببعض مدن الجزائر القديمة[37] وسنرجع لاحقاً لموضوع الفسيفساء وأنماطها ومدى انتشارها بالجزائر القديمة.

أما عن الأثاث فلا يستبعد تأثيث تلك المنازل بموائد الولائم ذات الشكل الدائري، ومن المعلوم أن قاعات الإستقبال كانت مجهزة آنذاك بأسرة للجلوس والإتكاء وكذا قاعات النوم[38]، كما يحتمل أيضاً تجهيز وصَفّ الرفوف لترتيب الأواني بالمطابخ وكذا الكتب بالمكتبات المنزلية والصناديق التي توضع بها الملابس وغيرها من الأغراض، ولكن من المؤسف أنه لم يبق من ذلك شيء، إلا أن الأواني كالصحون والنياطل والجرار والأمفورات وغيرها من حاجيات المنزل التي كانت مستخدمة يمكننا التعرف على بعضها من خلال ما هو موجود بالمتاحف والتي تتنوع ما بين طينية، خزفية وزجاجية، ويلاحظ قلة مخلفات هذه الأخيرة مقارنه مع بقايا سابقاتها، وقد يكون الأمر راجع أصلا كما ذكرت خديجة منصوري[39] لعدم انتشارها آنذاك بسبب عدم إقبال الناس عليها لسهولة كسرها مثلما قد يرجع إلى صعوبة صنعها وارتفاع تكاليفها. أما لإنارة المنازل ومختلف قاعاتها فقد استخدموا المصابيح التي تميزت بتزيين السطح العلوي لها بأشكال حيوانات، آلهة، ومقاطع من السيرك، ومختلف الألعاب بالمدرّجات[40] ولعبة النرد؛ أما تلك المتعلقة بالطائفة اليهودية فظهر بها الشمعدان السباعي الفروع وهو الرمز الوحيد الذي يخص هذه الطائفة، في حين تميزت مصابيح المسيحيين برمز الصليب.

مخطط عام لمدينة تيمقاد
من خلال آثارها سنة 1904
Boswillwald(E),Ballu(A),Cagnat(R),
Timgad, une cité africaine sous l'empire
romain,Paris,1905,Pl.,XLII;Lassère(J-M),
op.cit,p 576 Fig., 59

الهوامش:

1– Aïn Seba(N) et Ferhat(N), « Le Bovidien : Le pastoralisme et la mise en place des élémants de la désertification actuelle » in L'Algérie en héritage ., p 51□

2– Muzzolini(A)," Le groupe europoide d'Iheren-Tahilahi , étage « bovidien final » des paintures du Tassili " , Revue de l'occident musulman et de la méditerrannée, n°32, 1981, p 127 ; Fig.,3;5;11 ; □

كمال شاعو، "دور نقوش ورسومات الطاسيلي في التعريف بعصور ما قبل التاريخ"، آراء ودراسات في التاريخ والآثار القديمة، أشغال الندوة العلمية المنعقدة بالمدرسة العليا للأساتذة بوزريعة ـ الجزائر 23 / 24 ديسمبر 2011 تحت إشراف بلقاسم رحماني، ص71؛ 72 (رسم صخري يمثل عملية نصب الخيام من طرف النساء).

3– شافية شارن، بلقاسم رحماني، محمد الحبيب، الاحتلال الاستيطاني وسياسة الرومنة، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، 2007، ص26.

4– Tite – Live , XXX , 30 , 5□

5– Sallustius , Guerre de Jugurtha , LXXV

6– Berthier(A), « Un habitat punique de Constantine» , Ant.Afr , T.16, 1980 , pp 13-26

7– محمد الصغير غانم، سيرتا النوميدية، النشأة والتطور، دار الهدى، عين مليلة – الجزائر، 2008، ص96–98.

8– Rostovtseff(M-I), Histoire économique et sociale de l'empire romain , 3ème édition, trad., D.Demange , éd., Laffont , Paris , 1988 , p 240; 240n°97; Hamman(A-G), op.cit p 62

9– Le Coeur(CH), Les Mapalia , Hesperis,24,1937, pp 29-45; Martinié(J), A propos des Mapalia, Hesperis ,36,1949, p 446-447; Le Bohec (Y), Histoire de l'Afrique romaine(146avant J.-C-439aprés J.-C),éd.,Picard,Paris,p141

10– شافية شارن، بلقاسم رحماني، محمد الحبيب، المرجع السابق، ص221؛ 224.

11– Lancel(S), L'Algérie antique .,op.cit , pp 150-153

12– Rostovtzeff(M-I), op.cit , p 30 ; 58-59

13– Varron , De Re rustica , I , XIII , 5-7

14- Rebuffat(R) , «Les Fermiers du desert» dans l'Africa Romana, 5,1968, p 33-68; Le Bohec (Y), op.cit , p 141

15 – مصطفى علي محمد نامو، دراسة أثرية لفسيفساء أرضيات بعض الدارات في منطقة المدن الثلاث، منشورات المركز الوطني للمحفوظات و الدراسات التاريخية، دار الكتب الوطنية بنغازي، 2009 ، ص47.

16-Lassère(J-M) , Vbique Populus : peuplement et mouvements de population dans l'Afrique romaine, de la chute de Carthage à la fin de la dynastie des Sévères (146 aC-235 pC), CNRS, Paris, 1977, p 576-577 ; Lepelley(C) , «Ubique RespublicaTertullien, témoin méconnu de l'essor des cités africaines à l'époque sévérienne », in L'Afrique dans l'Occident romain, Ier siècle av. J.-*C.* - IV siècle ap. J.-*C,*éd., ecole française de Rome , Rome -Paris (CEFR 134), 1990 , p 416-417

17– تنبغي الإشارة إلى أن البيت ذو الطوابق، كان موجودا ببلاد المغرب القديم منذ العهد القرطاجي حيث كانت تصل عدد طبقاته إلى 5 أو 6 طوابق.

18 – Thébert (Y), « Vie privée et architecture domestique an Afrique romaine » dans Histoire de la vie privée , I . De l'empire romain à l'an mil , sous la direction de PH.Ariès et G.Duby, 2 ème edition , éd., Seuil , Paris , 1999,p 317

19– Suétone , Néron , 16

20– Apulée , Méthamorphoses , IV , 7-8

21– مع ضرورة الإشارة إلى أن جيلبار شارل بيكار يشكك في مسألة وجود الإنسولاي بكل بلاد المغرب القديم ; Février(P-A) , op.cit , p 58 لأن الاجابة عن هذا التساؤل مشكلة لا حل لها حسب رأيه، إذ أنه لا يمكن التفريق بين مسكن مخصص للسكن وآخر موجه للكراء بالمنطقة ولأنه بكل منزل كبير لغني ما، وجد بداخله جزء مخصص لاستغلاله لهذا الغرض، للمزيد من المعلومات أنظر: Picard(G-CH), op.cit,p 197

22– Jodin(A), Volubilis Regiae Jubae : Contribution à l'étude des civilisations du Maroc antique préclaudien , éd., Les Belles Lettres .Paris , 1987 , p 153

23– Février(P-A), op.cit, p 61

24–Picard(G-CH), op .cit , p 280

25 Malek(A-A), « Prairies et jardins . Art et nature dans la Domus se l'Algérie antique », in L'Algérie en héritage., p 155-156

26- Thébért(Y),op.cit, pp 388-389

27– Ibid,p 357 ; Id, « Les Maisons à étage souterrain de Bulla Regia » , Cahiers de Tunisie , 20, 1972 ,p 17-44

28– Cintas(P), Manuel d'archéologie punique ,II, La civilization Carthaginoise ,Les realizations matérielles Paris,1976 , p 106

29– Février(P-A), op.cit , p 71

30– Blanchard-Lemée(M), Maisons à mosaiqes du quartier central de Djemila(Ciucul) , editions OPHRYS ,1975 , pp213-225

31– Ibid , p 226 ; Le Bohec(Y), op.cit , p 173

32– Sintes(C), op.cit , p 72-73 ; Thébért(Y), op.cit , p 346

33– Ibba(A),Traina(G), op.cit , p 176 ; Picard(G-CH), op.cit , p 287

34– Blanchard-lémée (M) , «Le musee de Djemila (Algérie) : historique et problèmes», BSNAF , 1994 , p 100-103

35 – Picard(G-CH) ,op.cit , p 288 ; Le Bohec(Y), op.cit , p 174

36- Picard(G-CH), op.cit, p 292 ; Février (P-A), Approches du Maghreb., tome II, p69

37– Lancel(S), L'Algérie Antique ., p 172 ; Blanchard-Lémée(M), Maisons a mosaiques ., p 232

38– Février(P-A), op.cit , p 63

39 – خديجة منصوري، المرجع السابق، ص220.

40– Le Bohec(Y) , op.cit , p 175